# بلادُ السُّودان الغربيّ والأوسط في المصادر الإسلاميَّة

حسن أحمد إبراهيم*

روَّجت مجموعة من المستشرقين حتى بداية الستينيات من القرن الماضي مقولة مفادها أنَّ التاريخ نتاج للكلمة المكتوبة فقط، وبناءً على هذا الفهم القاصر، ولما حسبوه ندرة بل وانعدام للمصادر المكتوبة[1] فيما سمّوه إفريقيا جنوب الصحراء [2]، فقد زعم أولئك المستشرقون بأن ذلك الجزء من العالم لم يكن له تاريخ يستحق المعرفة أو الدراسة قبل اتصاله بأوروبا في أواخر القرن التاسع عشر.ولعل أهم من تبنَّى هذا الموقف الفيلسوف الألماني هيجل (١٧٧٠-١٨٠٣) الذي أطلق زعمه المشهور بأن

* أستاذ التاريخ ورئيس قسم التاريخ والحضارة، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

١ على الرغم من توفر بعض المصادر عن تاريخ إفريقيا عامة فإنها قليلة بالمقارنة مع أوروبا وآسيا، خاصة تلك الخاصة بإفريقيا جنوب الصحراء. ولهذا فإن تاريخها وحضارتها كانتا عموماً نتاج الكلمة المنطوقة التي لم تكن وسيلة للتخاطب فقط بل كانت طريقة مهمة للحفاظ على تجارب الأسلاف وحضارتهم. ومن هنا فإن الروايات الشفوية تشكل مصدراً مهماً للتعرف على تلك الحضارات. لمعرفة أهمية هذا المصدر انظر:

Curtin, P.D, "**Recent Trends in African Historiography and their Contribution to History**", in Ki-zerbo, J, (editor): **General History of Africa**, Vol. I (Unesco 1981), PP. 60-61.

٢ اعترض بعض العلماء والمؤرخين الأفارقة خاصة على مصطلح إفريقيا شمال وجنوب الصحراء وغيره من المصطلحات التي ابتدعها المستشرقون في دراساتهم للتاريخ الإفريقي. انظر على سبيل المثال: عز الدين موسى، **الإسلام وإفريقيا في العرب وإفريقيا** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٧) ص٦٧-١٨٣.

إفريقيا قارة غير تاريخية، وأنّ سكانها الزنوج غير قادرين على التطور والتعلم[٣]. وسار لاحقاً في الاتجاه نفسه المؤرخ البريطاني هوك تريفور روبر الذي زعم في سلسلة محاضرات ألقاها عام ١٩٦١ بجامعة أكسفورد بأن تاريخ أوروبا هو التاريخ العالمي الوحيد المفيد والذي يستحق الإشادة والاعتبار.[٤]

ومن هنا شاع الزعم بأنّ إفريقيا "السوداء" عاشت في عزلة تامة وظلام دامس، وبالتالي لم تسهم البتة في إثراء الحضارة الإنسانية، بل ومثلت هذه القارة في الخرائط القديمة بفضاء واسع كتب عليه (هنا مرتع السود) رمزاً للهمجية والتوحش. وحتى المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي الذي عرف بموضوعيته، فلم يضمِّن في موسوعاته التسع المشهورة عن تاريخ وإسهامات الحضارات العالمية أي ذكر لإفريقيا "السوداء" في هذا المجال.[٥]

غير أنَّ دراسات علمية أخرى تبنتها مجموعة مرموقة من العلماء الأفارقة - خاصة مصنفات اليونسكو الثمانية بعنوان: تاريخ إفريقيا العام[٦] - دحضت هذه المزاعم مبينة أنها نتاج للغرض والجهل. فبها أراد أولئك المستشرقون الترويج لما سموه (مسئولية الرجل الأبيض) نحو الشعوب المتخلفة، وبذلك تبرير الهيمنة والسيطرة الأوروبيَّة على شعوب العالم الثالث عامة والأفارقة خاصة الذين قسمت قارتهم عَقِبَ مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥) تقسيماً عشوائياً بين الدول الاستعمارية. وأهم من ذلك جهلهم التام بإفريقيا حتَّى القرن السادس عشر، وحتى عندما اتصلوا بها حينئذٍ فقد اقتصر ذلك على سواحلها و لم يتعداه إلى معرفة المجتمعات في دواخل القارة.

---

٣ هيجل، **محاضرات في فلسفة التاريخ، العقل في التاريخ**، ترجمة: إمام عبد الفتاح (ط٣، ١٩٨٣) ج١/ ٥٩، ١٧٢-١٨٣.

٤ لنص فرضية هذا المؤرخ ، انظر:

Fage, J. D, **"the Development of African historiography" in Ki-Zerbo**, J (editor): General History of Africa, Vol. 1 (Unisco 1981), P.31.

5 Toynbee Arnold: **A Study of History**, 9Vol. (London: 1939-61).

٦ تغطي هذه المصنفات الثمانية التي صدرت بالإنجليزية وترجمت إلى الفرنسية والعربية، تاريخ إفريقيا حتَّى القرن العشرين، وهدفها الرئيسي إعادة كتابة تاريخ إفريقيا من وجهة نظر إفريقية، أو ما يعبر عنه بالإنجليزية:
**Recovery, reconstruction or decolonization of African history.**

ولعل أهم مظاهر هذا الجهل هو عدم إدراك أوروبا حينئذ للمصادر العربية الفريدة والمهمّة التي دوَّنها الرحالة والجغرافيون العرب والمسلمون عن ما سموه (بلاد السودان)[٧]، ذلك المصطلح الذي استوحوه من لون بشرة السكان، وليميزوها عن شمال إفريقيا التي سموها (بلاد البيضان). وبلاد السودان تشمل حزام السافانا الذي يتوسط الصحراء في الشمال والمناطق الاستوائية في الجنوب، ويمتدّ من الخليج الأطلسي غرباً وحتى البحر الأحمر شرقاً.

وقد قسم الباحثون بلاد السودان إلى ثلاثة أقاليم رئيسة: السودان الغربي الذي يشمل حوض السنغال وجامبيا، وبوركينا فاسو، والنيجر الأوسط، ثم السودان الأوسط الذي يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد (من شرقي نهر النيجر حتى الحدود الغربية للسودان الشرقي)، وأخيراً السودان الشرقي الذي يشمل سودان وادي النيل والساحل الإفريقي الشرقي.[٨]

ويطلق أحياناً مصطلح أواسط أو غربي إفريقيا ليشمل كلاً من السودان الغربي والأوسط.

أدّى الإسلام إلى ثورة كبرى في المعلومات عن إفريقيا عامة وجنوب الصحراء خاصة خلال الفترة من القرن السَّابع حتى القرن الخامس عشر، والتي يطلق عليها أحياناً عهد المعلومات الإسلامي أو عهد المصادر العربية في إفريقيا.

ويمكن تتبع هذه المصادر حسب ترادفها حيث إنها تكون سلسلة تكاد تكون متصلة الحلقات[٩]. ويقسم المؤرخون فترة الثماني قرون هذه إلى عهدين: عهد

---

٧ تتبنى جامعة بيرجن بالنرويج مشروعاً مهمّاً تحت إشراف جون هنويك (John Hunwik)، وشون أوفاهي (R. S O'Fahey)، بالتعاون مع عدد من العلماء من تسعة مجلدات تحت عنوان: الأدب العربي عن إفريقيا، يصدر عن مطبعة برل بلادين في هولندا. على أنَّ هذا المشروع يحتوي أيضاً على شيء من الأدب الإسلامي عن إفريقيا الذي صدر بلغات أخرى. وقد ظهر حتَّى الآن مجلدان من هذه السلسلة هما:

R. S. O'Fahey: **Arabic Literature of Africa**, Vol. 1, **the Writings of Eartern Sudanic Africa to 1900** (E. J. Brill, Leiden, 1993), and J. O. Hunwik" **Artabic Literature of Africa**, Vol. 2, **the Writings of Ceneral Sudanic Africa** (E. J. Brill, Leiden 1995).

٨ عبد الصمد عبد الله، "فجر الإسلام في غرب إفريقيا"، **مجلة التجديد**، السنة السادسة، العدد السادس، أغسطس ١٩٩٩، ص١٢٧-١٢٨.

٩ جمال زكريا، **الأصول التاريخية للعلاقات العربيَّة الإفريقية** (القاهرة: ١٩٩٦) ص٢٤. بجانب هذا المؤلف هناك دراسات أخرى متعددة بالعربية عن المصادر العربيَّة عن إفريقيا جنوب الصحراء. مثلاً: عبد الجليل التميمي = =

المعلومات الإسلامي الأول من منتصف القرن السابع حتى منتصف القرن الحادي عشر، والثاني الذي امتد حتى القرن الخامس عشر.[١٠]

لم تكن مصر وبلاد المغرب والسودان محور اهتمام العالم الإسلامي خلال العهد الأول، ولذلك لم تنل اهتماماً كبيراً من المؤرخين العرب المسلمين كالطبري (ت ٣١٠/ ٩٢٣) في موسوعته تاريخ الرسل والملوك، والبلاذري (ت ٢٧٩/٨٩٢) في أنساب الأشراف. ولكن يجب أن يستثنى من ذلك خليفة بن خياط في طبقاته والبلاذري في فتوح البلدان، وابن عبد الحكم (ت ٢٥٧/٨٧١) في فتوح مصر والمغرب، كما ظهر لاحقاً مصنف الكندي (ت ٣٥٠/٩٦١) ولاة مصر وقضاتها. على أنَّ هذه الموسوعات الإخبارية تحدثت عن مصر وبلاد المغرب، ولكنها لم تشمل شيئاً يذكر عن إفريقيا جنوب الصحراء. غير أَنَّ الجغرافيين العرب أولَوا منذ القرن التاسع اهتماماً خاصًّا بإفريقيا جنوب الصحراء بدرجات متفاوتة. فهناك ابن الحسن المسعودي (ت ٣٤٦/٩٥٦) في سفره مروج الذهب ومعادن الجوهر، الذي انتهى من تصنيفه عام ٩٤٧، وقد أفاض في الحديث عن شعوب الزنج، وإن لم يتحدث عن اتصالات مباشرة معهم.

وهناك ابن خرداذبة (ت ٢٥٠/٨٦٤) في المسالك والممالك، واليعقوبي (ت ٢٨٣ /٨٩٨) في تاريخ اليعقوبي، وابن حوقل (ت ٣٨٧/٩٨٨) في سفره الأرض، والبيروني (ت ٤٤٠/١٠٤٨) في سفره الآثار الباقية في القرون الخالية الذي اهتم فيه كثيراً بالساحل الشرقي لإفريقيا. ويسترعي انتباهنا أيضاً مصنفا ابن الفقيه الهمداني (ت أواخر القرن الثالث الهجري/أوائل العاشر الميلادي)، والجغرافي الفارسي أبو علي ابن رسته المرقمان على التوالي كتاب البلدان والعلق النفيس، واللذان أوردا بصفة خاصة

---

= **الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب إفريقيا** (تونس: المنظمة العربيَّة للتربية والثقافة والعلوم. ودام كاني، "مصادر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة ٧٠٠و ١٧٠٠ مع إشارة خاصة إلى كانم ـــ برنو وأرض الهوسا"، **مجلة البحوث التاريخية**، السنة الثالثة، العدد الأول، ١٩٨١، التي يصدرها مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ليبيا. و عبد الرحمن زكي، "المراجع العربيَّة للتاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا"، **المجلة المصرية للدراسات التاريخية**، ١٩٦٧-١٩٧٨.

**١٠** لدراسة جيدة عن دور المصادر العربيَّة في إثراء الدراسات التاريخية، انظر مقال: J. D. Fage بالإنجليزية الوارد في الهامش الرابع، ص٢٥-٤٣.

إشارات متعددة عن مملكة غانا وغناها بالذهب[١١]. وكان كل من الفلكي الفزاري والجغرافي الخوارزمي (ت ٣٦٦/٩٧٦) قد زارا من قبل مملكة غانا في منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع على التوالي، ووصفاها في كتاباتهم بـــ (أرض الذهب). بل إنّ الخوارزمي حدد موقعها في خريطته التي نقلها عن بطليموس، وتحدث عن ثراء ملوكها وازدهار عاصمتها كومبي صالح، كما أشار إلى علوّ مكانة المسلمين فيها حيث احتلوا مناصب رفيعة كالوزراء والكتّاب.[١٢]

ويتميز العهد الإسلامي الثاني بوفرة وتنوع ومصداقية المعلومات العربية عن إفريقيا "السوداء". فمن المؤرخين الإخباريين في تلك الفترة ابن الأثير (ت ٦٢٠/١٢٣٣) في كتابه الكامل، وابن خلدون (ت ٨٠٨/١٤٠٦) في سفريه الخالدين المقدمة وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر الذي يعدّ مرجعاً أساسياً لإمبراطورية مالي، وعلاقة الأفارقة مع شعوب البحر الأبيض المتوسط.

أما مصنفات الجغرافيين العرب في تلك الفترة[١٣] فمن أهمها المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، والمسالك والممالك للبكري (١٠٢٩-١٠٩٤) فضلاً عن مسالك الأمصار للعمري، وتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الذي سجل كاتبه ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٩) فيه مشاهداته في رحلاته الثلاث التي استغرقت ثلاثين عاماً. وكانت آخرها إلى مملكة مالي في عهد سليمان أخي سلطانها المشهور منسا موسى[١٤]، حيث تحدث ابن بطوطة عن عادات وأحوال أهالي تلك المنطقة، وعن مدنها المهمّة كجن وتنبكتو...

---

**١١** انظر: ص٩-١٠.

**١٢** جمال زكريا، **الأصول التاريخية**، ص٤٢-٤٣.

**١٣** من الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن إفريقيا في أواخر القرن العاشر الميلادي محمد التاريخي الأندلسي المتوفّى عام ٩٧٣، والذي كان سفره وصف إفريقيا والمغرب مصدراً مهمّاً اعتمد عليه البكري في مصنفه الفريد: **المُغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمَغرب**.

**١٤** انظر: ص١٠-١١.

أما الإدريسي (١١٠٠-١١٦٦) فلعله كان أهم الجغرافيين العرب الذين كتبوا عن بلاد السودان في القرن الثاني عشر، وذلك في مصنفه المشهور: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الذي أعده عام ١١٥٤، وخريطته المشهورة للعالم في بلاط الملك روجر الثاني أحد ملوك النورمان وبناءً على طلبه.[١٥]

قلّت المصادر العربية الخارجية عن أفرقيا بطريقة ملحوظة منذ القرن الخامس عشر الذي شهد بدوره انحساراً واضحاً في نفوذ المسلمين سياسياً وثقافياً في العالم أجمع. ولكن هذا لا يعني أنها قد نضبت تماماً، بل إنَّ الجغرافيين العرب كتبوا بعض المصنفات المهمّة عن دواخل إفريقيا. وقد ظهر في حوالي منتصف القرن السادس عشر سفر مثير للجدل يتحدث عن وصف إفريقيا لمؤلفه الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٤-١٥٥٢) المعروف عند الغربيين بليو الإفريقي. على أَنَّ بعض المصادر الأوروبيَّة قد دأبت على اعتبار هذا الجغرافي من مصنفي الفرنجة لأن كتابه لم يصلنا بالعربية، وإنما باللغة الإيطالية التي أجادها المؤلف وكتب بها كتابه هذا. لكننا نميل إلى اعتبار هذا المصنف إسهاماً عربيًّاً مهمًّاً في إثراء المعرفة بإفريقيا، لأن الوزان ولد في غرناطة الإسلامية وكان عربي النشأة، حيث نشأ في شمال إفريقيا، كما تجول في المناطق الإفريقية التي تحدث عنها في كتابه أثناء وجوده في فاس، وقبل أن يقيم لفترة طويلة من حياته في روما التي غادرها على كل حال في أواخر حياته إلى تونس، كما عاد إلى الدين الإسلامي الذي كان قد ارتدَّ عنه إلى المسيحية، ثم إنَّه من الثابت أنه كتب مصنفه بالإيطالية اعتماداً على مذكرات دونها بالعربية عن رحلاته في إفريقيا، فضلاً عن أَنَّ بعض الدارسين يرى أَنَّ النسخة الإيطالية ترجمة لأصل عربي فقط. وهكذا فإن سفر وصف إفريقيا مجهود عربي في المقام الأول قدم إفريقيا لأوروبا فأفادها كثيراً في حركة كشوفها الجغرافية اللاحقة [١٦]. وفي هذا المقام لا بُدَّ أن نذكر المصنَّف المشهور باسم المحيط لمؤلِّفه الملاح العربي المسلم أحمد بن ماجد بـــ (أسد البحار) الذي قاد المكتشف البرتغالي فاسكو دي غاما إلى الهند.

---

١٥ أقام الإدريسي في صقلية منذ عام ١١٣٨ وحتى وفاته في سنة ١١٦٦. وقد استنكر عليه بعض المسلمين البقاء في "دار الكفر" والتعاون مع ملكها.

١٦ ترجمت النسخة الإيطالية لكتاب الوزان، بلغات أوروبية متعددة كاللاتينية والفرنسية والإنجليزية.

ومن أهم الرحالة العرب الشيخ محمد بن عمر التونسي الذي جاب في مطلع القرن التاسع عشر أصقاع دارفور ووداي لمدة عشر سنوات (١٨٠٣-١٨١٣)[١٧]، حيث دوّن نتائج رحلته هذه في القاهرة في مصنَّف: عنوانه تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان. وهذا السفر يمدنا بمعلومات أولية عن الأحوال الأنثوجرافية والثقافية والسياسية في بلاد دارفور ووداي والياجرمي والممالك الإسلاميَّة الأخرى فيهما وحولهما.[١٨]

وفي مقابل انحسار الأدب العربي الخارجي عن إفريقيا منذ القرن الخامس عشر ظهر أدب عربي معتبر كتبه مؤرخون أفارقة مسلمون عن مجتمعاتهم خاصة في غرب وشرق إفريقيا وسودان ووادي النيل. وهكذا فإن الصوت الإفريقي قد دوّن لأول مرة باللغة العربية، ومن ثَمَّ باللغات الإفريقية كالهوسا والسواحلي التي استخدمت بدورها الحرف العربي. فهناك على سبيل المثال مصنَّف الفقيه محمد نور بن ضيف الله الموسوم "كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان" الذي حققه يوسف فضل حسن، ومخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطة السنارية والإدارة المصرية (في سودان ووادي النيل) والتي حققها كل من الراحلين مكي الطيب شبيكة والشاطر البصيلي عبد الجليل.

على أَنَّ من أهم ما يعبِّر عن الصوت الإفريقي تاريخا تنبكتو اللذان صدرا في القرن السادس عشر عن عالِمين إفريقيين، ومن هذا المركز الإسلامي الإفريقي المرموق: تاريخ الفتاش في أخبارِ الجيوش وأكابر الناس، لمؤلفه محمود الحاج المتوكل الكعتي، وتاريخ السودان للعلاَّمة عبد الله عبد الرحمن السعدي اللذين كانا شاهدي عيان

---

١٧ لم يسافر التونسي على ما يبدو لتلك الأصقاع حبّاً في أدب الرحلات أو للعلم والدراسة، وإنما ليلحق بأبيه الذي ارتحل إلى سنار ومنها إلى دارفور، ومن قبله جده سليمان إلى سنار. هذا وقد صاهرت أسرة التونسي أهالي دارفور، وأصبحت لها مكانة سياسية ودينية واجتماعية مرموقة، الأمر الذي ساعده كثيراً في كتابة مصنفه.

١٨ بدأ التونسي رحلته إلى دارفور عام ١٨٠٣ فعاش فيها سبع سنوات ونصف غادرها بعدها إلى وداي حيث بقي فيها ثمانية عشر شهراً، ومنها عاد إلى تونس التي بلغها حوالي ١٨١٣. وبعدئذ سافر التونسي إلى مصر حيث التحق بخدمة جيش محمد علي في وظيفة واعظ في إحدى فرق المشاة التي حاربت في بلاد المورة باليونان. وعندما عاد إلى تونس سنة ١٨٣٢ اشتغل بتنقيح كتب الطبّ المترجمة إلى العربيَّة.

لأحداث شاهداها وخبرات عاشاها. وقد تميز هذان التاريخان عما سبقهما من مؤلفات الأفارقة المسلمين بالعربية كموسوعتي كانو وكلوا بأنهما لم يقتصرا على رصد تحليلي دقيق لأحداث زمانهما، بل شملا تاريخ المنطقة من قبل. ومن غرب إفريقيا ظهرت المصنفات الدينية والفقهية للعالم التنبكتي المشهور أحمد بابا (ت١٦٢٧) خاصة موسوعته الضخمة في التراجم المسماة نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بينما ظهر في منطقة صاي تاريخ صاي لمؤلفه ابن إدوارد والذي لم يصلنا منه إلا ملخص وجيز عن محتوياته كتبه بوبا هاما. ومن تنبكتو انتشرت كتابة هذه التواريخ جنوباً وغرباً خاصة منذ القرن الثامن عشر. فكان كتاب الغنجة الذي صدر عام ١٧٥٢ عن مملكة الغنجة اعتماداً على الروايات الشفوية، وفتح الصخر ١٨٠٥ الذي كتبه البارتلي وأعده للنشر جون هنوك. ويجب أن لا ننسى في هذا المقام المؤلفات الكثر للشيخ عثمان دان فوديو وأخيه عبد الله وابنه محمد بيلو.[١٩]

ونظراً لأصالة وتفرد التاريخين فقد يكون من المناسب أن نستطرد قليلاً في الحديث عن مؤلفيهما ومحتواهما. فالسعدي عالم إفريقي مسلم ينحدر من سلالة سودانية ارستقراطية تمتّ إلى أصول مغربية، ولد في سنة ١٥٥٦ في تنبكتو وترعرع فيها. وقد تقلد عدداً من الوظائف المهمّة، ومارس مهامًّا سياسية في بعض ممالك غرب إفريقيا، وقد أرّخ السعدي في سفره تاريخ السودان لمملكتي غانا ومالي في السودان الغربي، ولكنه تخصص في سلطنة سنغاي الإسلاميَّة على عهد سلاطينها العظام من أسرة أسكيا، فاهتم بوصف مجالس العلم في مدنها كجن، وأشار إلى مشاهير العلماء آنئذ. ويروى أنَّ كاتباً مجهولاً ولد في تنبكتو عام ١٧٥١ أتمَّ هذا السفر إلى الغزو المراكشي لسنغاي في مصنف آخر بعنوان تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان.[٢٠]

---

**١٩** نتج عن جهاد الشيخ عثمان فوديو إقامة الخلافة الصكتية في بلاد الهوسا (شمال نيجريا) عام ١٨١٠ التي ورثها عنه أحفاده حتَّى سقوطها على يد الغزاة الإنجليز عام ١٩٠٢. وقد ألّف عثمان دان فوديو وأحفاده خاصة أخوه عبد الله وابنه محمد بيلو عدداً كبيراً من الكتب والمخطوطات التي عالجت مسائل فقهية عديدة كموضوع "الموالاة" وغيره من القضايا الإسلامية الحساسة والمثيرة للجدل. ومن بين هذه المؤلفات في وجوب الهجرة على العباد، ومسائل مهمة يحتاج لها أهل السودان، والقول المختصر في أمر الإمام المنتظر، وتنبيه الأفهام على أنَّ المهدي هو الختام.

**٢٠** جمال زكريا، **الأصول التاريخية**، ص١٥٦.

أما الكعتي التبكتي فهو أيضاً عالم مرموق وقفت أحداث مصنَّفه تاريخ الفتاش أصلاً عام ١٤٦٦، فأكمله حفيده ابن الممتاز حتَّى عام ١٦٦٥. وتبلغ أهمية هذا السفر أنَّ مؤلفه الرئيس كان شاهد عيان لما سجله من أحداث عن مملكة سنغاي خلال عهد أسرة الحاج محمد أسكيا وحتى الغزو المغربي لها عام ١٥٩٢. وكزميله السعدي اهتم الكعتي بتسجيل الحياة الدينية والعلمية ومراكز الثقافة التي انتشرت في عهده.

نحن لا ندّعي بأن هذه المصنَّفات العربيَّة قد كانت أصيلة في معلوماتها دائماً أو كاملة لا يرتابها قصور. فالرحالة والجغرافيون العرب لم يدونوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلاَّ نادراً حيث أدرج معظمهم أخبارها فيما وضعوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان. ثم إنَّ ما دونوه لم يكن دائماً نتاج أحداث عايشوها وشاهدوها بأعينهم، بل استقوها أحياناً من آخرين كالتجار والبحّارة الذين زاروا تلك المناطق أو ادعوا ذلك. ومعلوماتهم عن إفريقيا لم تكن عادة مطَّردة بتوالي السنين، كما أنَّ الأسطورة والخيال قد خالطت بعضها.[٢١]

ثم إنَّ بعض هذه المصنفات قد شايعت في مواقع شتى النظرة السائدة آنذاك عن تخلف الأفارقة وهمجيتهم. وها هو ابن خلدون يقول في مقدمته: "لقد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب في ذلك أنَّه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس"[٢٢]. وبتأثير من جالينوس ويعقوب بن إسحق - على حد قول ابن خلدون - يرى المسعودي أنَّ هذه الظاهرة نفسها تعود (لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف في عقولهم).[٢٣]

---

**٢١** انصرف العرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر من الجغرافية العلمية ووجهوا الكثير من اهتمامهم للحديث عن العجائب، وفي وصف الغريب من حيوان البر والبحر. ومن أهم الذين كتبوا عن العجائب شمس الدين أبو عبيد الله الدمشقي في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. لمناقشة مفيدة لهذا الموضوع مع بعض الأمثلة من أسفار الجغرافيين العرب عن الأساطير، انظر كتاب: حسين رزينة، **جغرافيا الوهم** (لندن، ١٩٨٩).

**٢٢** ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد، **المقدمة**، ص٣٩١.

**٢٣** المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** (بيروت، ١٩٨٢) ج٤.

على أنَّ هذه الشوائب والهنات لا تبرر ازدراء كثير من المستشرقين لهذه المصادر واستهجانها والتقليل من شأنها[٢٤]. ولعل دافعهم وراء هذا الهجوم الكاسح هو إصرارهم على النيل من الإسلام والحضارة الإسلاميَّة في إفريقيا. فهذه المصادر ذات أهمية قصوى لأنها كتبت في وقت لم يعرف فيه العالم شيئاً يذكر عن إفريقيا، بل إنَّها قدمت تلك القارة لأوروبا نفسها. ثم إنَّها دحضت الزعم السائد ببدائية وهمجية المجتمعات الإفريقية التي سمتها المصادر الغربية ( Stateless Societies - مجتمعات بلا دولة)، فأبانت بـــأن خصوبة أراضي السودان وتوفر المعادن فيها أهَّلها لتكون مهداً لحضارات إفريقية عريقة وممالك قوية قبل وبعد ظهور الإسلام، وحافزاً لعلاقات تجارية نشطة عبر طرق ودروب الصحراء مع بلاد المغرب ومصر وعبرها إلى العالم الخارجي. وبهذا دحضت الفرية بانكفاء القارة السوداء على نفسها وعزلها تماماً عن العالم لقرون سحيقة. وسنفصّل فيما بعد عن فضل تلك المصنّفات في هيكلة وتفصيل تاريخ السلطنات الإسلاميَّة في السودان الغربي والأوسط.

رمى بعض المستشرقين الإسلام بالجمود والتخلف والحسيّة المفرطة. ولهذا تقاطرت عليه الأعراق البدائية كالزنوج الأفارقة والملايويين (سكان أرخبيل الملايو). وذلك لأنه - على حدّ زعمهم - أشبع شهواتهم ولاءم عقولهم المتحجرة. وذهب فريق آخر من هؤلاء المستشرقين إلى الزعم بأن المسلمين قد فرضوا الإسلام بحدّ السيف على هذه الشعوب المستضعفة فتظاهرت بقبوله خوفاً ورهبةً من بطش أولئك الغزاة الجبابرة. ولهذا فإن الإسلام قد بقي على السطح في هذه المجتمعات، بل إنَّ أحد هؤلاء المستشرقين زعم حديثاً في كتابين عن الإسلام في جنوب شرق آسيا بأن هذا الدين الوافد قد أدى إلى ما سماه (Neurosis of Conversion - عُصاب الاهتداء) بين من قبلوه من السكان.[٢٥]

---

٢٤ من الإنصاف أن نشير إلى أنَّ عدداً من المستشرقين قد اعترفوا بفضل أولئك الرواد العرب المسلمين، واستفادوا من معلوماتهم فائدة قصوى خاصة فيما يتعلق بالسلطنات الإسلاميَّة التي ظهرت في بلاد السودان قبل القرن السادس عشر.

٢٥ ذلكم هو ف. س نايبول (V. S. Naipul) في كتابيه:

**Among Beleivers, an Islamic Journey** (New York, 1981). and: **Beyond Belcif: Islamic Exurcions among Converted Peoples** (New York, 1998).

غير أَنَّ المصادر العربيَّة آنفة الذكر قد بينت بما لا يدع مجالاً للشك بأن الإسلام قد انتشر في القارة الإفريقية، كما كان الحال تماماً في جنوب شرق آسيا، بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى يد الدعاة من التجار ورجال الطرق الصوفية عبر منافذ رئيسة ثلاث: مصر، وبعض مدن الشمال الإفريقي خاصة طرابلس وبنغازي وسوكنه[٢٦]، والساحل الشرقي لإفريقيا. ونظراً لمرونة الإسلام وتسامحه فإنه لم يرفض الثقافات الإفريقية جملة وتفصيلاً، ولم يقم بهدم المؤسسات المحلية، بل تداخل وتفاعل معها أخذاً وعطاءً، مقدماً مثالاً رائعاً عن التداخل الحضاري كما يحلو لعلماء الاجتماع تسميته.

ونتج عن ذلك التداخل ظهور ثقافة عربية - إفريقية، الأمر الذي يؤكده بقاء اللغات واللهجات الإفريقية التي كتب بعضها كالهوسا والسواحيلية بالحرف العربي ودخلتها مفردات عربية جنباً إلى جنب مع اللغة العربيَّة التي احتفظت بمركزها بوصفها لغة العلم والثقافة[٢٧] تماماً كما كان الحال من قبل مع اللغة اللاتينية في أوروبا. وكما سنبين فقد أصبحت بعض الحواضر الإفريقية منارات للفكر والثقافة الإسلاميَّة، ومنها شارك العلماء الأفارقة في إثراء الدراسات الإسلاميَّة والعربية، فنبغ بعضهم في الفقه والأدب والتاريخ.

ولا بدّ أن نذكر في هذا المقام العالم الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المتوفى عام ٩٠٩هـ، فهو أصلاً من الأندلس هاجر عقب سقوطها على يد الفرنجة

---

**٢٦** أعد مؤخراً الطالب الليبي عادل محمد عبد العزيز رسالة دكتوراه في الجامعة الوطنية الماليزية في بانجي بعنوان: **الحياةالاقتصادية والاجتماعية في مدينة سكونه خلال العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١**، بيَّن فيها وفي مواضع متعددة أَنَّ مدينة سكونه التي توسطت طرق القوافل عبر الصحراء إلى السودان الأوسط، أدَّت دوراً مهمّاً في تجارة العبور الصحراوية التي عرفت أيضاً باسم تجارة الترانزيت، وفي التداخل الحضاري بين العرب والبربر في الشمال الإفريقي والأفارقة في مملكة كانم ـ برنو. ويضيف الدكتور عادل بأن آثار هذا التداخل ما تزال باقية حتَّى يومنا هذا في مدينة سكونه متمثلة في الفنّ، غناء وموسيقى، وفي مجتمع الزنوج الذي يشكل شريحة مهمّة من سكانها. لمزيد من التفاصيل انظر: الفصل الثالث من المصدر السابق، ص١٦١-٣٢١.

**٢٧** جمال زكريا، **الأصول التاريخية**، ص٩-١١.

عام ١٤٩٢ جنوباً عبر الصحراء إلى بلاد السودان حيث عقد لقاءات عديدة واتصالات وثيقة مع عدد من سلاطينها وأمرائها من بينهم أسكيا محمد في مدينة جاو وربما (أمير) كانو. وقد وصف السعدي في تاريخه هذا العالم الجليل الذي يرجع إليه فضل السبق في إدخال الطريقة القادرية إلى السودان الغربي بقوله: "لقد كان مقداماً على الأمور جسوراً جريء القلب فصيح اللسان محبّاً في السنة جدلياً نظاراً محققاً".[٢٨]

وللمغيلي مؤلفات كثيرة في شتى علوم المعرفة الإسلاميَّة منها **البدر المنير في علوم التفسير، ومفتاح النظر في علم الحديث وتنبيه الغافلين عن مكر الملبين بدعوى مقامات العارفين**. ولكن أهم مؤلفاته وأشهرها رسالة صغيرة في نحو ثمانية عشر صفحة من القطع الصغير عن واجبات الحكام المسلمين، قيل أنَّه وجّهها لأمير كانو تحت عنوان: **تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين**. وقد وصفها محقّاً محمد خير رمضان بقوله: "هذه رسالة موجزة الألفاظ غزيرة الفوائد استخلصها علامة وفقيه فهامة من علمه وفقهه ومن استقرائه لأحوال الماضيين واطِّلاعه على أحوال مجتمعه، فصاغها في كلمات موجزة وعبارات واضحة، وسكبها في قالب الإسلام السمح".[٢٩]

وقد قسّم المغيلي رسالته إلى ثمانية أبواب سماها تباعاً "فيما يجب على الأمير من حسن النية"، و"فيما يجب على الأمير من حسن الهيئة"، و"فيما يجب على الأمير من ترتيب مملكته"، و"فيما يجب على الأمير من الحذر بالحضر والسفر"، و"وفيما يجب على الأمير من الكشف عن الأمور"، و"فيما يجب على الحكام من العدل في الأحكام"، و"في مجبى الأموال من وجوه الحلال"، وأخيراً "في مصارف أموال الله".

وكما يتضح من هذه العناوين ومن محتوى الرسالة فإن المغيلي فصل في مؤهلات الحكام وواجباتهم ومظهرهم، منبِّهاً إلى أنَّ الحاكم يجب أن يكون حسن السيرة والسريرة والهندام دون مبالغة أو غلو في الملبس. فقال: "وزيّن جسمك، وطيّب رحيك، وحسّن ثوبك بمباح من زينة الرجال غير مشبه بالنساء، ولا مفسد لبيت

---

**٢٨** نقلاً عن محمد عبد الكريم المغيلي، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، **تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين** (بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٤) ص٩.

**٢٩** المصدر السابق، ص٥.

المال، فلا تتزين بذهب أو فضة ولا حرير فإن ذلك قبح ودناءة وضلال"[٣٠]. وأضاف في نهاية كل أبواب الرسالة حكمة تقول: "رأس كل بلية احتجاب الراعي عن الرعيّة"، كما نصح في مكان آخر: "لا بد للأمير الأعظم أن يجلس كل يوم للناس، بحيث يصله الرجال والنساء". واسترشاداً بالقرآن الكريم وكتابات علماء المسلمين كابن خلدون قد أثبت المغيلي أهمية العدل في الحكم حيث قال: "للسلطنة رجلان: العدل والإحسان، فالحق أن يوفى كل ذي حقه من نفسه وغيره، والإحسان أن يتفضل من نفسه لا من غيره".[٣١]

بل وأنه خالف ـــ متأثراً بابن تيمية[٣٢] على ما يبدو ـــ الحكم السني السائد بأن الحاكم لا يعزل عن السلطة إلاَّ إذا كفر، ففي ردّ على استفسار من أسكيا الحاج محمد حاكم سلطنة سنغاي ـــ أفتى المغيلي بوجوب عزل الحاكم إذا طغى وتجبر واستكبر، تلك الفتوى التي اعتمد عليها عثمان دان فوديو لاحقاً في تكفير حكام الهوسا من المسلمين والجهاد ضد حكمهم.

وعالم إفريقي آخر هو سيدي مختار الكنتي (١٧٢٩-١٨١١) الذي بلغت مؤلفاته عن الإسلام وتعاليمه نحو ثلاثمائة مؤلَّف. وقد أدَّت هذه الكتابات وطلاب الكنتي دوراً مهماً في نشر العقيدة والحضارة الإسلاميَّة والطريقة القادرية في كل من السودان الغربي والأوسط.

**ممالك وسلطنات السودان الغربي والأوسط في المصنفات العربية:**

**مملكة غانا:**

إنَّ تاريخ إفريقيا مدين للمصادر العربيَّة لأنها كانت أول من سلّط الضوء على عدد من السلطنات في بلاد السودان عامة والسودان الغربي والأوسط خاصة، وقد كانت مملكة غانا التي امتد تاريخها لفترة أربعة قرون من القرن الثامن حتَّى القرن الثاني عشر من أوائل الدول المشهورة في غربي إفريقيا. فقد كان الفرازي الفلكي أول من كتب

---

**٣٠** المصدر السابق، ص١٩.

**٣١** المصدر السابق، ص٤١.

**٣٢** كان شيخ الإسلام ابن تيمية قد أفتى في القرن الثالث عشر بتكفير حكام المغول ووجوب الجهاد ضد حكمهم التعسفي على الرغم من ادعائهم الإسلام، تلك الفتوى التي سماها لاحقاً كاتب معاصر هو أحمد عبد السلام فرج "الفريضة الغائبة".

عنها، كما زارها الجغرافي الخوارزمي خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادي. غير أنَّ البكري أفرد لها حيزاً معتبراً من سفره :المُغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمَغرب، تحدث فيه عن غناها بالذهب وعظمة بلاطها وازدهارها التجاري والعسكري، كما ترك لنا الكثير من المعلومات عن عاصمتها كمبي صالح.

وذكر أنَّ مدينة جن الغانية تكونت من حيين: أحدهما للمسلمين بني فيه أحد عشر مسجداً وسكنه عدد من الفقهاء والعلماء، والثاني كان مقراً للملك الوثني، أنشأ فيه إلى جانب قصر الملك مسجداً ليؤدي فيه زواره المسلمون الكثر الصلاة [٣٣]. وأفاضت المصادر العربيَّة في الحديث عن علاقة غانا بدولة المرابطين في شمال إفريقيا.

**سلطنة مالي:**

على أنَّ توافد التجار المسلمين منذ القرن التاسع إلى بلاد السودان عامة وغربيها خاصة، وضغط دولة المرابطين العسكري المكثف أضعف سلطنة غانا تدريجياً إلى أن عصف بها في القرن الثاني عشر. فحلت محلها إمبراطورية مالي المسلمة التي ادعى مؤسسوها أنَّهم من سلالة الصحابي المشهور بلال مؤذن رسول الله ﷺ [٣٤]. وقد تعرض لأحوالها في القرن الثالث عشر المصنِّف العربي ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) في معجمه: معجم البلدان، كما وافانا خلال القرن الرابع عشر الجغرافي العربي فضل الله العمري في موسوعته: مسالك الأبصار بوصف دقيق للملكة ولأقاليمها ومدنها وقيادتها، وتحدث عنها أيضاً القلقشندي (٨٢١/ ١٤١٨) في الجزء الخامس من موسوعته الضخمة: صبح الأعشى.

غير أنَّ تاريخ سلطنة مالي مدين بشكل خاص للمؤرخ الفيلسوف ابن خلدون الذي دوّن في كتابه "العبر" أخبارها بإسهاب معطياً قائمة مفصلة بأسماء حكامها وإنجازاتهم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر [٣٥]. وكان منهم منسا (وتعني باللغة المحلية

---

٣٣ لمزيد من المعلومات عن سلطنة غانا وغيرها من الدول الإفريقية القديمة، انظر:

Curtin, P. and others: **African History from Earliest Times to Independence** (London: 1996), PP. 73-76.

34 Niane, D. T: "**Mali and the Second Mandingo Expansion**", in Niane (Editor): **General History of Africa**, Vol 14, P. 129.

٣٥ لنبذة عن ابن خلدون ودروه في إثراء الدراسات الإفريقية، انظر:

Idris, R: "**Society in Maghrib after the Disappearance of Almohad**" in Niane, D, T (editor) **General History of Africa**, Vol4, PP114 -116.

ملك الملوك) موسى الذي امتد حكمه نحو خمسة وعشرين عاماً (١٣٠٧-١٣٣٢)، ووصفه المؤرخ المقريزي وصفاً دقيقاً في موسوعته "الخطط" قائلاً: "كان شاباً أسمر اللون صبوح الوجه ممشوق القوام، حسن الهندام، درس على مذهب الإمام مالك"[٣٦]. ولعل السبب الرئيس لشهرة هذا الحاكم هو حجه المشهور إلى الأراضي المقدسة، الذي قيل أنَّه اصطحب فيه ستة آلاف حمّال وخمسمائة من الرقيق محمّلين بالذهب، وفي طريق عودته من مكة توقف منسا موسى في القاهرة حيث اصطحب معه المهندس المعماري المشهور إسحاق التويجي الذي صمم مسجدين رائعين في العاصمة جاو وتنبكتو. وقد أصبحت هاتان المدينتان مع :جن، مراكز إسلامية مرموقة. ومن المصادر العربيَّة الأخرى التي تحدثت عن سلطنة مالي تاريخياً تنبكتو وموسوعة الوزان، وصف إفريقيا التي يجب أن تُقرأ بحذر، إذ أنَّ مؤلفها لم يزر المملكة على ما يبدو.

**سلطنة سنغاي:**

بعد تطور دام أكثر من ثمانمائة عام تمكن السنغاي الذين استقروا على ضفاف نهر النيجر من إقامة دولة في القرن الخامس عشر على أنقاض سلطنة مالي، والتي كانت أكبر وأشهر إمبراطورية في غربي بلاد السودان قاطبة، حيث امتد نفوذها إلى كل مدن بلاد الهوسا في شمال نيجيريا الحالية. ولا تسعفنا المصادر بالكثير عن تاريخ سلطنة سنغاي قبل عهد حاكمها المشهور سنى علي مير أوسني علي الأعظم (١٤٦٤-١٤٩٢) ولكنها - خاصة تاريخا تنبكتو ومصنفات الجغرافيين العرب كالبكري والإدريسي - تحدثنا عن قوة وعظمة هذا الحاكم الذي تمكن جيشه الضارب من الزحف من العاصمة جاو والاستيلاء على مدينتي جن وتنبكتو. ولكن وفاته المفاجئة أدت إلى حرب أهلية طاحنة انتهت باستيلاء محمد تور - الذي اتخذ لنفسه لقب أسكيا - وأسرته الإسلاميَّة على حكم السلطنة. ولعل أهم ما يميز عهد هذا السلطان رحلة حجّ مشهورة إلى الأراضي المقدسة عام ١٤٠٦-١٤٠٧ مصطحباً معه ثمانمائة من الخيالة وعدد كبير من العلماء، فضلاً عن نثريات بلغت ثلاثمائة ألف دينار. وفي

---

**٣٦** نقلاً عن ترجمة إنجليزية للنص العربي في:

Niane, D. T: "**Mali and the Second Mandingo Expansion**, in Niane (Editor): **General History of Africa**, Vol14, P. 149.

طريقه إلى الحج زار الأزهر الشريف والتقى مع شيخه المشهور جلال الدين السيوطي الذي نصحه باتباع العدل والإحسان مع الرعية. وكان شريف مكة قد منحه لقب "خليفة السودان"، وعيّن ممثلاً له - الشريف السالكي - في بلاط سنغاي.

وقد بلغت سنغاي قمة ازدهارها ورخائها في عهد ابنه داور الذي أشاد التاريخان بهمته وذكائه واهتمامه بالمساجد واحتضانه العلماء ورجال العلم، كما دونا بلغة الماندنجو قائمة بوجهاء ومؤسسات سلطنته (كالهاي كوي - المسؤول عن الأسطول)، (الكوري فارما - المسؤول عن الأجانب البيض). ويشيد الكعتي بقادة سنغاي العظام وشجاعتهم وتمكنهم من فنون الحرب وإشاعتهم العدل بين الرعية، وبمكانة القضاة السامية في السلطنة خاصة قاضي تنبكتو المشهور محمد بن عمر العقيت (١٤٩٨-١٥٤٨) الذي احتكرت أسرته هذا المنصب الرفيع طوال القرن السادس عشر. وتحدث هذا المصدر أيضاً عن أهم ثلاث مدن في السلطنة: تنبكتو، وجن، وجاو. وكانت تنبكتو حينئذ بمثابة العاصمة الروحية لبلاد السودان قاطبة حيث وفد إلى مساجدها الثلاثة المرموقة العلماء وطلاب العلم من داخل وخارج بلاد السودان.[٣٧]

غير أنَّ صراعات طاحنة بين الأسرة الحاكمة وخطر عسكري داهم من الشمال قد أدَّيا في نهاية المطاف إلى سقوط سلطنة سنغاي. فقد انتهز حاكم مراكش المشهور مولاي أحمد المنصور مبايعة أحد ملوك مملكة برنو له ـــ ماي إدريس الأوها ـــ في عام ١٥٨٣ ليرسل في عام ١٥٩٠ حملة عسكرية عبرت الصحراء واشتبكت مع قوات سنغاي في معركة ضارية قرب العاصمة جاو انتهت بهزيمتها عام ١٥٩١، وكان ذلك بمثابة نهاية سلطنة سنغاي التي كان سقوطها لطمة كبرى للإسلام في بلاد السودان.[٣٨]

**إمارات بلاد الهوسا:**

أطلق كل من العالم والمؤرخ جلال الدين السيوطي (١٤٤٥-١٥٠٥)، ومؤرخا تنبكتو لفظ بلاد الهوسا على المنطقة الممتدة من نهر النيجر غرباً وحتى بحيرة تشاد

---

**٣٧** لتفاصيل وافية عن سلطنة سنغاي انظر:

Cissoko, S. M: "**The Songhay from the 12th to the 16th Century**", in Niane, D. T (editor): **General History of Africa**. Vol14 (Unesco, Paris, 1984), PP. 187 - 210.

**38** Abitbol, M: "**The End of the Songhay Empire**", in Ogot, B. A (editor): **General History of Africa**, Vol 10, PP. 300 - 310.

شرقاً. وقد سكنتها مجموعات عرقية متباينة تحدثت كلها بلغة الهوسا التي أعطتهم ذاتية ثقافية فريدة. ويعتنق الهوسا الدين الإسلامي، اللهم إلا مجموعات قليلة لم تقبلا إطلاق اسم الهوسا عليها مفضلة تسميات أخرى بلغة الهوسا كـــ "ماقوزاوا" التي ربما استمدت من الكلمة العربية "مجوس" وتعني: الإحيائيين او اللادينيين.

إذاً فإن مصطلح الهوسا يشمل كل من تحدث هذه اللغة بصرف النظر عن جذروهم العرقية أو دياناهم أو أماكن إقامتهم. وتحدثنا المصادر العربية والروايات الشفوية عن فرضيات متعددة عن أصل الهوسا، فأولها يعود بهم إلى أصل عربي من بغداد، وأخرى تزعم أنهم أصلاً من منطقة الصحراء الكبرى التي أُجبروا على الهجرة منها جنوباً إثر التغيرات الجذرية في مناخها، وفرضية ثالثة تزعم أنهم من غربي بحيرة تشاد، بينما تشير رابعة إلى أنهم من سكان مناطق الهوسا الأصليين.

وعلى كل فإن ذاتية الهوسا الحضارية المستقلة، وموقع بلادهم الاستراتيجي، إضافة إلى توفر مواردها الاقتصادية مكنهم من تشييد حضارات مهمة تمركزت حول عدد من المدن التي لعبت دوراً حيوياً منذ القرن الرابع عشر على أقل تقدير في بناء حضارة إسلامية زاهرة في تلك البلاد، ومنها كانو وكاستينا وزازاو وجوبير ورانو وزمفرا وكبي. وتبين موسوعة كانو العربية أن تلك المدن قد حكمت بمقتضى الشريعة الإسلامية، وأن العلماء الذين تقاطروا عليها من الشرق والغرب والشمال لعبوا دوراً قيادياً وريادياً فيها، ومن أهم أمراء إمارات الهوسا الإسلامية إبراهيم الذي حكم إمارة سورا لمدة ستة أعوام ١٤٩٣-١٤٩٩، اشتهر خلالها بحرصه على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كما تبادل الرسائل مع المؤرخ المصري جلال الدين السيوطي.

على أن المجاهدين بقيادة الشيخ عثمان دان فوديو قد اتهموا فيما بعد حكّام هذه الإمارات وعلماءهم - علماء السوء على حدّ تعبير الشيخ - بالتسلط والفساد و"التخليط" بين الإسلام والأديان الإفريقية، ومن ثَمَّ انقضوا على تلك الإمارات الواحدة تلو الأخرى، وأقاموا مكانها خلافة إسلامية قوية اشتهرت باسم الخلافة الصكتية، وسيطرت على ذلك الجزء من القارة الإفريقية نحو قرن من الزمان (١٨١٠ -١٩٠٢). وقد ساهمت هذه الخلافة مساهمة فعالة في نشر الإسلام وتثبيت أركانه،

ومن ثَمَّ مقاومة الاستعمار البريطاني الذي عصف بها في مطلع القرن العشرين بعد مقاومة شرسة استمرت عدة سنين.[٣٩]

## مملكة كانم ــ برنو في السودان الأوسط:

قامت في وحول منطقة بحيرة تشاد حفنة ممالك لا تسعفنا مصادرنا بالحديث تفصيلاً إلاَّ عن أهمها، بل وأهم كينونة سياسية بين نهري النيل في الشرق والنيجر في الغرب. ولعل أهم مصدرين لتاريخ هذه السلطنة ــ كانم ــ برنو ــ هي كتابات الجغرافيين العرب كالإدريسي وابن سعيد المغربي والمقريزي[٤٠]. ومصدر إفريقي خالص يعرف باسم الديوان، والديوان يعود تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر حيث بدأ مؤرخو بلاط كانم اعتماداً على المصادر الشفوية في تسجيل تاريخ سلاطين الأسرة الحاكمة في زمانهم، كما عادوا للوراء حتَّى القرن العاشر الميلادي. وقد أكمل هذا السجل لاحقاً حتَّى نهاية عهد السرة الصفوية في القرن التاسع عشر، حيث دونت فيه عقب وفاة كل سلطان فقرة عنه وعن إنجازاته. وقد يتبادر إلى الذهن أَنَّ حاصل تاريخ هذه القرون الستة مصنَّف ضخم، ولكن في الحقيقة لم يتعدّ حجم هذا الديوان خمس صفحات ونصف فقط. وبجانب همّه الرئيس بتاريخ الأسرة الحاكمة، فإن هذا الديوان مقيد لتفهم بعض مظاهر الحياة في السودان الأوسط بصفة عامة. والمصدران أعلاه، مصنفات الجغرافين العرب والديوان، مكملان لبعضهما البعض حيث أمدنا الأول بالبعد المكاني والثاني بالبعد الزماني لتاريخ هذه السلطنة.[٤١]

لا تحدد مصادرنا وقتاً محدداً لنشوء سلطنة كانم، ولكن من المرجح أن يكون ذلك بين عامي ٧٠٠ و ٨٠٠ ميلادية، حيث سيطر الحكام الزغاوة الوثنيين عليها لمدة قرون

---

٣٩ لتفاصيل أوفى عن إمارات بلاد الهوسا ارجع إلى:

Adams, M: "**The Hausa and their Neighbours in Central Sudan**", in D. T. Niane (editor): **General History of Africa**. (Unesco) Vol 4, PP 266-300.

٤٠ انظر: 92-93 w.

41 Longe, D: "**The Kingdoms and Peoples of Chad**", in Niane, D. T (editor): **General History of Africa**, Vol4, PP. 238-239.

قادمة. ولكن قبول أحدهم الإسلام أدى إلى صراع حادّ بين الأسرة الحاكمة اضطرها للانسحاب جنوباً إلى برنو. وعندئذ استولت على الحكم في أوائل القرن الحادي عشر أسرة جديدة، الأسرة الصفوية، التي ادعت الانحدار من سلالة البطل اليمني سيف بن ذي يزن، مما يشير إلى علاقات تاريخية عميقة الجذور بين السودان الأوسط والجزيرة العربية. غير أنَّ هجمات خارجية قوية ومتعددة أجبرت الصفويين في نهاية القرن الرابع عشر على التخلي عن كانم، ونقل مركز دولتهم إلى برنو غربي بحيرة تشاد، ومن ثَمَّ أحكموا قبضتهم على المنطقة بأسرها حيث بلغ عدد السلطنات تحت حكمهم في نهاية القرن الخامس عشر اثني عشر سلطنة. وتحدثنا المصادر العربيَّة أنَّ عدداً من سلاطين كانم - برنو - الذين لقب الواحد منهم - ماي - أدوا فريضة الحج. ولعل أشهر هؤلاء ماي علي جاجي (١٤٦٥-١٤٩٧) مؤسس الخلافة البورنية الذي عرف عنه حرصه على تنقية الإسلام مما لحق به من شوائب وتخليط على عهد بعض من سبقوه من حكام الأسرة الصفوية. وقد أقام حكومة إسلامية في مملكته، كما أحاط نفسه بالعلماء الذين عينهم في مناصب قيادية واستشارهم في كل شؤون السلطنة. وأهم هؤلاء وزيره مسبرمه بن عثمان والقاضي الأكبر أحمد بن عبد القواتا.

وقد قيل أنَّ الخليفة العباسي عبد العزيز بن يعقوب سمى في عام ١٣٨٤ ماي علي "خليفة التكرور". ومنذ ذلك الوقت لقب سلاطين كانم - برنو بالخلفاء، ذلك اللقب الذي اعترف به حكام وعلماء بلاد السودان قاطبة[٤٢]، بل وإن أمراء مدن بلاد الهوسا المسلمين أرسلوا العطايا والهدايا لخلفاء التكرور، هكذا فقد أصبحت خلافة التكرور وعاصمتها برنو مركزاً إسلامياً مشهوراً تخصص في تفسير القرآن، وزاره بعض علماء المسلمين. وأقامت الأسرة الصفوية علاقات تجارية ودبلوماسية مع مصر وشمال إفريقيا، ومع الإسبان عند احتلالهم لطرابلس عام ١٥١٢، ومن ثَمَّ مع العثمانيين الذين سيطروا على المغرب في عام ١٥٥٥، ويمثل القرن السابع عشر العصر الذهبي

---

42 Barkindo, B. M: "**Kanem - Bornu: its Relations with the Mediterranean Sea" Bagrmi and other States in the Chad Basin"**, in Ogot, B. A (editor): **General History of Africa**, Vol15 (Unesco, Paris, 1992), PP. 492-93.

لسلطنة برنو حيث سيطرت سياسياً وثقافياً وتجارياً على كل سلطنات السودان الأوسط بما فيها وداي وباجرمي، بل إنّ الأولى أسست بإيحاء من الصفويين وعلى يد أحد العلماء الذين درسوا في برنو - عبد الكريم (١٦١١-١٦٥٥) - لتكون ترياقاً ضد أطماع سلطنة باجرمي التوسعية.[٤٣]

على أنّ موجة الجهاد التي اندلعت في بلاد السودان قاطبة منذ منتصف القرن الثامن عشر وطوال القرن التاسع عشر اتهمت الحكام الصفويين وغيرهم بالفسوق "والخلط" بين الإسلام والوثنية. وقد أنهك الجهاد سلطنة برنو فلم يعد خليفتها التكروري قادراً على حماية ممتلكاته في بلاد الهوسا من خطر المجاهدين أنصار عثمان دان فوديو وأحفاده، كما خرجت عن سلطتها نهائياً سلطنتا وداي وباجرمي. وهكذا فقد أنهى المجاهدون حكم الأسرة الصفوية، ولكن سلطنة برنو بقيت بشكل أو بآخر قوة سياسية فاعلة في السودان الأوسط حتّى مطلع القرن العشرين.

**خاتمة**

يزعم البعض بأن التاريخ مجرد سرد متسلسل لأحداث الماضي، وبما أنّه من المستحيل معرفة الماضي بصورة دقيقة صحيحة، فإن علم التاريخ - على حدّ زعمهم - لا فائدة منه البتة، أو كما تجنّى عليه المفكر الألماني غوته - Goethe (١٧٤٩-١٨٣٢) بقوله: " إنّه حزمة من اللغط والكلام الفارغ لا تستهوي توقعات وتطلعات النجباء الأذكياء". ولكن على هؤلاء أن يتفهموا التفسير الإسلامي للتاريخ إن أرادوا معرفة المزايا والمنافع الكثر لهذا العلم، الذي يوصف بحق "أم العلوم الأخرى" أو "ذاكرة الشعوب". فالقرآن الكريم أفرز حيزاً واسعاً فيه وفي مواقع شتى لسرد قصص الأنبياء، ومادة تاريخية غزيرة أخرى لهدف نبيل لخصته ببراعة الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِيْ قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [٤٤]. فعلم التاريخ إذاً لا يسرد الأحداث الماضية للتلذذ بمعرفتها فحسب، وإنما - أهمّ من ذلك بكثير - لاستقصاء الدروس والعبر من أحوال الأمم الماضية لمساعدة الأمم اللاحقة لتشيد حاضر بناء مفيد والتخطيط لمستقبل مشرق زاهر.

---

٤٣ للتفاصيل حول العلاقات الخارجية لسلطنة كانم - برنو ارجع للمصدر السابق، ص٤٩٢-٥١٣.

٤٤ سورة يوسف: ١١.

وقد لخّص الفيلسوف المؤرخ الإسلامي عبد الرحمن بن خلدون فلسفة "الاعتبار" هذه في فقرة من مقدمته الفريدة مستخدماً تعبيراً آخر "الاقتداء" على النحو الآتي: "اعلم أنَّ التاريخ فنّ غزير المذهب جمّ الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرتهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتَّى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لما يرومه في أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة وحسن نظر يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط".[٤٥]

ظلَّ إضعاف الروابط العربيَّة - الإفريقية محور أهداف الاستعمار بامتداد مراحلها، بدءاً بمرحلة الاستعمار الاقتصادي وعبوراً بمرحلة الإمبريالية حتَّى مرحلة الاستعمار الحديث التي اطلت بنفسها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد شوّه هؤلاء تاريخ العرب والمسلمين في إفريقيا واستغلوا بعض سلبياته خاصة مشاركة العرب في تجارة الرقيق[٤٦] للترويج لمقولتهم "الاستعمار العربي" أو "الغزو العربي" لإفريقيا الذي أطاح بقوة السلاح ببعض الإمبراطوريات الواعدة. وقد أدَّت الإرساليات التبشيرية دوراً مهماً في هذه الهجمة الشرسة على الوجود العربي في

---

٤٥ ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، **المقدمة**، ج١/٢٩١.

٤٦ نحن لا ننكر أنَّ العرب قد شاركوا في تجارة الرقيق عبر الصحراء الكبرى والساحل الشرقي لإفريقيا ونهر النيل. ولكن يجب أن نضع تلك المشاركة في إطارها التاريخي الصحيح، فالاسترقاق كان معروفاً ومألوفاً في العالم على مرّ التاريخ وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كما كان للأوروبيين نصيب الأسد في تجارة الرقيق - خاصة عبر الأطلنطي - التي أسهم فيها أيضاً الأفارقة أنفسهم بتسهيل اقتناص الرقيق من دواخل إفريقيا وترحيلهم بالقوة إلى السواحل لبيعهم لتجار الرقيق. وقد يكون من المناسب أن نذكر في هذا الصدد تشبيهاً محكماً للبروفيسور علي مزروعي الذي شبّه جريمة الاسترقاق بجريمة القتل التي تقسم إلى ثلاث درجات من حيث الفظاظة: الدرجة الأولى ارتكبها الأوروبيون، والثانية العرب، والثالثة الأفارقة، ثم إنَّ بعض الدراسات العلمية قد أثبتت أنَّ معاملة العرب للرقيق قد كانت أقل قسوة من تلك التي عانوها من التجار الأوروبيين، كما أنَّ بقايا الرقيق قد انصهروا تدريجياً في المجتمعات العربيَّة حتَّى أصبحوا مواطنين يتمتعون بمعظم حقوق المواطنة، لدراسة رائدة في هذا المجال انظر:

Ali, Abbas I. M: **The British, the Slave Trade and Slavery in the Sudan** (Khortoum 1972).

إفريقيا برمته. فبدلاً من التركيز على رسالتهم الدينية بنشر تعاليم المسيحية ركَّز المبشرون على تشويه صورة الإسلام ومحاربة اللغة والثقافة العربيَّة باستخدام الأبجدية اللاتينية بدلاً من العربية، واستبعاد المفردات العربيَّة الكثيرة التي دخلت عبر قرون طويلة في اللغات الإفريقية.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة التاريخ العربي الإسلامي في إفريقيا عبر الأسفار والمصنَّفات العربيَّة الكثيرة لدحض تلك المزاعم، والتأكيد على أنَّ العلاقات العربيَّة - الإفريقية ضاربة في التاريخ، وأن الإسلام واللغة العربيَّة أدَّيا دوراً رئيساً في نشأتها وترسيخها. فالإسلام كما أشرنا لم يفرض أيديولوجيته على الشعوب الإفريقية ولم يرفض جملة ثقافاتها، بل تفاعل وتداخل معها، واللغة العربيَّة أصبحت لغة العلم والثقافة في إفريقيا لقرون عديدة. إذاً فمن الضروري التأكيد عبر المادة التاريخية العربيَّة الوفيرة والغنية على دور العرب الريادي في التاريخ الإفريقي، وعلى أنَّ التراث العربي جزء لا يتجزأ من التراث الإفريقي. وهذا ضروري وحيوي لصد الهجمة الغربية للتشكيك في الروابط العربيَّة - الإفريقية التي تفاقمت بصورة تدعو إلى الانزعاج منذ السبعينيات من القرن الماضي، وبالتالي تطوير التعاون العربي - الإفريقي إلى رحاب أوسع. ولا بدّ أن نشيد في هذا المجال بأبحاث بعض المؤرخين العرب كالأستاذ جمال زكريا قاسم، والأفارقة مسلمين وغير مسلمين، خاصة أولئك الذين أسهموا في مصنفات اليونسكو الثمانية بعنوان تاريخ إفريقيا العام التي أشرنا إليها آنفاً.